الفصل الرابع

مقدمات معركة بلاط الشهداء
بواتيه *Poitiers*

مقدمات معركه بلاط الشهداء (يواتيه Poitiers)

كان استدعاء موسى بن نصير إلى دمشق وقد اجتاز جبال البرت الفاصله بين أسبانيا وبين بلاد الغال La Gaule التي عرفت حينذاك بحركة الفتح التي كان القائد العربى مصمما أن يمضى بها وراء الجبال وسواء أراد تحقيق مشروعه العسكرى الكبير في اجتياح القارة الأوربية والوصول إلى ضفاف البسفور حيث القسطنطينية أم إنه أراد تأمين الحدود الدفاعية لاماراته الجديدة فى الجنوب الغربي لاوربا فإن هذا القائد بما يتمتع به من عبقرية عسكرية كان مستمرا فى تقدمه وانتصاراته حتى دعوة الخلافه له بالتوقف ، لكن غياب القيادات العسكرية صانعه الانتصارات فى أسبانيا لم يكن ليؤدى إلى تجميد الطموح الإسلامى وراء جبال البرئيه فى قلب مملكة الفرنجة المجاورة ولاسيما أن الظروف كانت ملائمة للمضي فى المخطط التوسعى ولم يكن من سبب يدعو إلى هذا الحد كذلك فإن ممارسات القواد فى الأندلس لم تكن نابعة من قرارات الخليفه بقدر ما أرتبطت بحتميات الواقع الجديد الذى فرضته الإستراتيجيه العسكرية للموقف الماثل أمام قاده البلاد وربما لا نتفق مع أفكار الخليفة الأموى فى عاصمته البعيدة ولاسيما لواتيحت الفرصه لموسى بن نصير ان يتابع عملياتة العسكرية بعد وصوله إلى إقليم اراغون فى الشمال الشرقي لأسبانيا هل كانت فرنسا ستصمد أمام جيوشة أم إنها تلافى مصير دولة القوط لكن النتيجة المتوقعه كانت ستكون بالايجاب لاسيما أن أوضاع تلك الدولة المجاورة فى تلك الفترة لم تكن تختلف كثيرا فى أحوالها عن أسبانيا القوطية عشيه الفتح الإسلامى لها.

ذلك لان الفترة السابقة لفتح الأندلس بقليل كانت بلاد الفرنجة تشهد ضعف سلطة الملوك وازياد قوه النبلاء فى الدولة واتساع سلطة الكنسيه وكثرة ثرواتها وإنغماسها فى السياسه الدنيوية وتدهور السلطه العامه واندلاع الحروب الداخلية والمنازعات الداخلية التى عدت قاعده عامه فى البلاد ثم اصبح تاريخ الفرنجة بعد ذلك حتى ظهور شارل مارتل عام ٧١٤م يمثل تاريخ النزاع بين العائلات فى (استريا واستراسيا) للفوز بمركز رئيس البلاط وكان الغاليون أو الفرنجة سكان تلك

المنطقة الواسعه الممتده بين اللوار غربا ومن المانيا الحاليه شرقا هم في الاصل كالقوط الغربيين أحد الموجات الجرمانيه من الأسره الميروفنجيه التى اسست حكم البلاد منذ القرن الخامس الميلادى وقد جرى تقسيم تلك الدولة إلى ثلاثة أقسام رئيسيه هي اواستراليا Austrasia نوستريا Naustria برغنديه Bargurdia عدا الاقطاعات بين الصغيره الأخرى وكثيرا ماجرى صراع بين الأخوة بينما انهارت سلطه الملوك تماما لكنه في أواخر القرن السابع الميلادى كانت اماره اوستراسياس قد حارت الغلبه فى النهايه من ذلك الصراع وكان ذلك يرجع فى الحقيقة الى رئيس بلاطها الذى كان بوسعه ان يهضم من الاتباع مايزيد على مالدى منافسيه فى تستريا ويرغنديه وكانت فرنسا فى التاريخ الرومانى تسمى(غاله) وبعد سقوط الدوله الرومانيه تنازعت فرنسا قوى مختلفه فاصبحت سيتمانية تابعه للقوط الغربيين وأصبح الأقليم الذى يحده نهر اللوار شمالا إلى جبال البرانس جنوبا دوقيه مستقله هي اكتيانيا إلى جانب اقليم بروفانس فى شرق سيتمانيه واقليم يرجانديا بشرق نهر الرون ، أما شمال نهر اللوار حتى المانيا الحالية فكانت مملكة تسمى مملكة الفرنجة الميروفنجية وقد كان الفرنجة الذين غزوا غاله في أواخر القرن الخامس الميلادي من أعظم القبائل الجرمانية قوه وأكثرها شهرة فى العصور الوسطى وكانت المملكة التي أقاموها هنالك المملكة الجرمانيه الوحيدة القوية التي كتب لها البقاء فى الغرب الأوروبي واعتنق الفرنجة المسيحية الكاثوليكيه وأقاموا حلفا مع الكنسيه الغربية واسهموا كثيرا في صنع التاريخ الأوروبي في العصور الوسطى لاسيما في عهد شارل مارتل وابنه بنين القصير وحفيده شارلمان حين انتقلت السلطة فى منتصف القرن الثامن الميلادي إلى أسرة جديدة في شكل رؤساء البلاد فى اواستريسا ، ذلك انه في الوقت الذى كانت الدولة الميروفنجية تنحدر إلى الزوال وتعيش الحقبة الأخيرة في عمرها ويتعاظم نفوذ رؤساء البلاد (شارل مارتل) وتشتد مطامعهم للانفراد بالسلطة فى دولة الفرنجة عبر المسلمون إلى شبه الجزيرة الليبيرية فى اوائل القرن الثامن الميلادى ليقتحموا اسبانيا وليقضوا على مملكة القوط الغربيين فى ظل ظروف الصراع والإختلاف التى مرت بها دولة الفرنجة كان المسلمين بقيادة موسى بن نصير يطرقون جبال البرت ويعبرونها إلى بلاد الفرنجة ويتحينون للوثوب عليها

ومن المؤكد أى قرار التوقف العسكرى اتاح لدولة الفرنجة أن تعى أبعاد الطموح الإسلامى فى غزو القارة الاوربية وأن تدرس كافة الإحتمالات للمواجهة الحتمية مع هذة الحشود الإسلامية المنتصرة ، ولإحساس الفرنجة بالخطر الإسلامى فإنه لم يمضى عام واحد على عودة موسى بن نصير إلى المشرق (٩٥/ ٧١٤م) حتى قام في واستراليا أكبر الأقاليم في المملكة الفرنجية من أسرة هرستال Herstal بتوحيد أجزاء الدولة المبعثرة ، فبعد أن كان يسمى محافظ القصر Mairesdu palais اراد ان يتخذ له لقب ملك وسارع إلى إرسال سفراءه إلى روما يسأل البابا زكريا اليس من حق الشخص الذي بيده السلطة الحقيقية أن يكون له لقب ملك ؛ فأجاب البابا من حق الرجل الذي بيدة السلطة الحقيقية أن يكون له لقب ملك وهكذا بدعم من الكنيسة أمراء الإقطاع استطاع محافظ القصر أن يكون هو الملك والرجل الناقد والشخصية الاقوى فى بلاد الفرنجه، فأجتمع على أثر ذلك مجلس النبلاء وقرر أن يمنح بُيان لقد ملك وأن يرسمه القديس يونيفاس ، لهذا المنصب وأصبح ملكا جديدا للفرنجه ، وهكذا قدر لبيان الملك الجديد أن يصنع سياسة العلاقات العربية الفرنجيةوذلك لمجابهة المد الإسلامي الذي بلغ مداه في مطلع القرن الثامن الميلادي . وإذا كان بيبان بعد موته عام ٧١٤م قد ترك فراغا في السلطة بسبب اختيار حفيده لوراثة الملك لاسيما أن «بيبين» استمر يحكم البلاد مدة تقرب من سبعة وعشرين عاما (٦٨٨-٧١٤م) ثم خلفه أبنه غير الشرعي الذي عرف فيما بعد باسم شارل مارتل أو المطرقة Martel بعد صراع مرير وحروب أهلية استمرت سنوات في بداية عهده لكنه تمكن من حسم الأزمة لمصلحته وأصبح الرجل القوي في مملكة الفرنجة حيث صارت له السلطة المطلقة على كل ولاياتها بعد أن أخضع اوسترليا وتستريا خضوع تماما . وقد كان توليه السلطة نقطة تحول خطيرة في الحروب المقدسة التي خاضتها أوروبا ضد اعدائها المسلمين واستمد جانب كبير من شهرة شارل مارتل إلى ماحققه من نجاح تجاه المسلمين في جنوب المملكة الفرنجية . اضافة إلى أنه أعاد حدود المملكة الفرنجية إلى ماكانت عليه قديما واهتم بنشر المسيحية بين قبائل المانيا الوثنية ونشر القانون وضرب بيد من حديد على كل محاولات الفتنة الداخلية

ورتب الأمور في الاقاليم الجنوبية لاسيما في برجنديا ، وأخضع دوق اكوتين ووجه شارل مارتل جانبا هاما من جهوده لجنوب المملكة المجاورة للأندلس .

وهكذا فإن مجيء شارل إلى السلطة في تلك الظروف كان حدثا غيرعادي في تاريخ العلاقات بين اسبانيا الإسلامية وبين الدولة الفرنجية وفي ذلك الوقت كانت قرطبه عاصمة الأمويين ماضية في بناء عظمتها ورقيها كأحد عواصم الدنيا الهامة في ذلك الوقت وأيضا قد تجاوزت الدولتان دولة الفرنجة الكارولنجين ودولة الأمويين الأندلسية على جانبي جبال البرئية (البرانس) بما كانت تمثله كل منهما من زعامة سياسية وعسكرية ودينية وماكانت تنفذه كل منها بمسؤلياتهما تجاه شعبها وأمنها وقيمها الدينية والروحية وكان لابد من حدوث احتكاك بينها وسواء جرى ذلك الاحتكاك عنيفا واتخذ اسلوب الصراع الدموي أو جرى في اطار سلمي دبلوماسي أو اطار حضاري وفكري أو اطار اقتصادي مادي وبعبارة أخرى كان لابد أن يحدث احتكاك بين الدولتين وتجرى صلات بينهما بحكم تجاوزهما من ناحية واختلاف قيمهما الدينية والسياسية من ناحية أخرى ولهذا جرى الصراع بينهما رهيبا وعنيفا تمثل في صورة معركة بلاط الشهداء . ذلك لأنه لولا وجود شارل على رأس السلطة لما كان من المستطاع مجيء بيبيان وابنه شارل. ذلك لأن عرب الأندلس لم توقف مسيرتهم قرارات الخلافة فضلا عن الطموح الإسلامي الكبير في اجتياز ذلك الحاجز الجبلي ذي الممرات الضيقة والتوغل في الأراضي الكبيرة Grande Lerre كان هو الهدف الأسمى حاملين قرآنهم ومقدمين عقيدتهم الإسلامية إلى تلك الشعوب الوثنية التي لم تكن قد تعمقت لديها العقيدة المسيحية لاسيما أن الغارة الإسلامية القوية والعنيفة التي قام بها عنبسة بن سحيم الكلبي في نواحي فرنسا كلها واستيلاؤه على أقليم بورجونيا ، الذي هو جزء من امبراطورية الفرنجة قد ألقى الرعب في معظم الدوقيات الجنوبية والوسطي وشعرت امبراطورية الفرنجة أنها أمام خطر داهم لابد من أن يكتسح امبراطورية الفرنجة كلها وبدأ واضحا أن الحملة القادمة ستكون حملة حاسمة في تقرير مصير الأمبراطورية المترامية الأطراف وهو أن المسلمين لابد لهم من أن يواصلوا فتح باقي أنحاء

امبراطورية الفرنجة ومواصلة الزحف نحو الشمال وهكذا كانت هذه الانتصارات الإسلامية العظيمة والزحف السريع والقوي لعنبسه الكلبي سببا في أن يتحالف أبناء الشمال الأوروبي تحت قيادة شارل مارتل وأن يتناسى الدوق اودو دوق اكوتياتيه عداءة القديم لشارل مارتل وأبيه الملك بتان وبدأ يعملان سويا بمناصرة بعضالجيوش الأوربية الأخرى لوقف المد الإسلامي الزاحف من الجنوب لإحتواء هذه الأقاليم في دولة الإسلام الكبرى وذلك بكل ماوصلت إليه أيديهما من وسائل الحرب وأسلحة مختلفة .

ولقد كان ظهور شارل مارتل كرجل قوي في مملكة الفرنجة خلفا لأبيه غير الشرعي يبيبان في نفس العام الذي تحرك فيه السمح بن مالك الخولاني (١٠٠/ ٧٢٠م) .

وقد شهدت الجبهة الأندلسية الداخلية فترة من عدم الاستقرار السياسي ذلك لأن السياسة الداخلية لم تكن لتأخذ الطابع الإسلامي السليم ، ووقف تعاليم الشريعة الإسلامية الغراء حيث تغلبت العصبية القبلية العنيفة على تصرف هؤلاء الحكام تغلبت حيث صارت العلاقات بين الولاه العرب تشهد بعض الصراعات وكان عرب الأندلس ينتهزون الفرصة بين الحين والآخر لإقامة واحد منهم واليا عربي على الأندلس لكن فترة الولاية لم تكن تتجاوز إلا شهور قلائل ثم تعود الأمور إلى طبيعتها عندما ترسل الخلافة الأموية في دمشق «الحكومة المركزية» بتوليه والى جديد من قلبها .

لكن قادة الجيش وأهل الرأى والحل والعقد وأعيان البلاد في الأندلس استطاعوا هذه المرة أن يفرضوا لأول مرة فيما اختاروة واليا على الأندلس على الخلافة الأموية وأن تفرض الاختيار لأن هذا الاسم لم يكن غريبا أو غير مسموعا لدى رجال الخلافة في دمشق ، ذلك هو عبد الرحمن الغافقي الذي استطاع في السابق تغيير مجريات الأحداث وفي عام ٧٢٠م أن يتفادي الاحتلال العسكري بين القوتين المتصارعتين خلف جبال البرانس (المسلمون والفرنجة) وأن يعيد تنظيم الانسحاب وانقاذ البقية الباقية من الجيش الذي فقدقائدهوالتراجع بهم إلى ناربونه

ومنها إلى الأندلس ومن هنا تردد اسمه بعد استشهاد السمح ولم يمكث في الولاية إلا شهرا واحـدا لكن لم يمضـي زمن طويل حتى يـكون هذا الاسم أكثـر الأسماء شهرة في تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامـي والغرب المسيحي وأن يرتبط اسمه بأشهر معركة في التاريخ الإسلامي ، كان لـها أثر كبير في حركة المد الإسلامي في القارة الأوروبية سلبيا وتأثيرا لسنوات قادمة.